إمارة المُشَعشَعيين في الأهواز
قراءة تاريخية للمستقبل

الشيخ د. جعفر المهاجر

(١)

كانت هذه الأرض المباركة ، أرض الأهواز ، التي ينتسب إليها ابن مهزيار رضوان الله عليه ، ميداناً لتجربة تاريخية خطيرة . امتدَت على خمسة قرون . وانتهت نهاية ناجحة ، بمقاييس الحق والباطل للنجاح والفشل . الأمر الذي كان له أثر طيَب على تطوَر التشيَع في منطقتها ، وربما في مناطق مجاورة . في مرحلة زمنيَة نهض فيها إحدى نهضاته الكُبرى . حريٌ بنا أن نقرأها ونستعيدها ، وأن نفهم مدلولها ومغزاها . خصوصاً وأننا نتطلّع الآن إلى نظم أمرنا ، في ظل هذه النهضة العظيمة التي نتفيأ ظلالها ، بقيادة الجمهورية الإسلامية أعزها الله تعالى . وهذه الإستعادة تدخل في باب " أحيوا أمرنا " . الهدف الأول والأسمى لمؤتمركم الكريم ، المعقود اللواء لأحد أفاضل أصحاب الأئمة صلوات الله عليهم .

من الأبواب التي تُفضي إلى " أحيوا أمرنا " ، قراءة تاريخنا الخاص قراءة جديدة. ومن المعلوم عند العارفين ، أن وظيفة القراءة التاريخية ، ليس فقط في أنها تبني جسراً بين الحاضر والماضي ، بحيث تُرينا كيف تطورت الأحوال إلى ما هي عليه الآن . بل أيضاً ، وهذا هو الأكثر أهمية ، أنه يهيئنا للدخول إلى المستقبل ، مُزودين بالخبرة الضرورية . إنها مؤهلة لأن تجعل من حركة التاريخ ، الكامنة فيه ، أمراً مفهوماً . بل وقابلاً للتوجيه وإن جُزئياً . بحيث تُهيئنا للدخول إلى المستقبل ، مُزودين بالخبرة اللازمة ، لفهم آلياته وتوجيهها ، فيما يتناسب مع مبادئنا ومصالحنا . هي ، بالنسبة للجماعات ، مثل الخبرة الشخصية بالنسبة للأفراد. فكما أن الشخص ، إذا استوعب ما يقع فيه من مشكلات ، يغدو أكثر قدرة على مواجهة أمثالها في المستقبل كذلك الجماعات . أما الطفل الذي لم يمر بالتجارب ، أو الرجل الذي لم يستوعب مغازيها ، فهو كمن لم يقرأ التاريخ ، أو كالذي قرأه قراءة سرديَّة . مثلما تُقرأ القصة للتسلية والترويح ، أو في أفضل الأحوال لمجرد العلم بالشئ . وإلى هذا المعنى أشار المولى سبحانه ، في ختام سورة يوسف ، بعد أن قص علينا بالتفصيل قصة المحن والتجاريب التي مرَ بها " لقد كان في قصصهم

عبرة لأُولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شئ ، وهُدى ورحمة لقوم يؤمنون " .

(٢)

أقصد بذلك إمارة السادة المُشَعشَعيين . نسبةً إلى مؤسسها وأول أُمرائها محمد بن فلاح الموسوي ، الملقب بالمُشَعشَع . (توفي سنة ٨٤٤ هـ / ١٤٤١ م) وهو تلميذ وربيب وصهر للشيخ أبي العباس أحمد بن فهد الحلي الشهير (توفي سنة ٨٤١ هـ / ١٤٣٨ م) وقد بسطت سلطاناً ما ، أعني بمُختلف الدرجات ، على منطقة شاسعة . امتدت ، في أقصى درجات اتساعها الثابتة ، على منطقة البطائح ، في جنوب العراق ، بالإضافة إلى كامل الأهواز . واستمر المُشَعشَعيون في السلطة لمدة تزيد قليلا على الخمسة قرون . ولكنهم في أكثر تلك المدة كانوا تابعين لملوك إيران ، من صفويين وزنديين وقاجاريين . بحيث أنهم كانوا بمثابة الولاة لهم ، ولايةً وعزلاً وسياسةً إلى ما هنالك .

ليست هذه العجالة ، عن التاريخ السياسي للإمارة المُشَعشَعية ، هي غرضنا . وإنما أردنا من إيرادها ، أن تكون مدخلاً وباباً إلى ما يهمنا . وهو التاريخ العقيدي لشعبها ، من غُلاة إلى معتدلين . لما في هذا التطور من عبر ودروس بالغة . نعتقد أننا في أمس الحاجة إليها . وستقول بعد قليل لماذا . أما الآن فإن علينا أن نخدم البحث بعُجالة أُخرى ، نصف فيها تطوره العقيدي . ابتغاء تحليله واكتشاف آلياته .

(٣)

فمن المعلوم المشهور ، أن سكان تلك البقاع كانوا في أول أمر الدولة المُشَعشَعية من الغُلاة ، ثم استقاموا . وهذا أمر نادر ، بوصفه تحولاً شعبياً كبيراً . لكن هاهنا ما يجب تصحيحه . فالمعروف أيضاً أنهم انحرفوا بتأثيرأُمرائهم الأوائل : محمد بن فلاح ، وابنه محسن ، وحفيديه علي وأيوب . والحقيقة أن هؤلاء كانوا من العلماء الأبرار ، بذلوا جهوداً صادقةً في سبيل تحسين أحوال شعبهم خصوصاً أهل البطائح . الذين كانوا وما يزالون ، أو مَن بقي منهم ، من أكثر الناس بؤساً وتخلفاً ، بكل معاني البؤس والتخلف . يعيشون في منطقة الأهوار ويتعاطون زراعة الأرز وتربية الجاموس . وأُلفت النظر هنا إلى شهادة القاضي الشهيد ، نور الله التستري ، رضوان الله عليه ، بحقهم . وذلك في كتابه الشهير (مجالس المؤمنين / المجلس الأول) ، حيث يقول ، أن انتشار التشيع في

منطقة خوزستان ، يعود الفضل فيه إلى السيد محمد بن فلاح وأبنائه ومما يُزكي هذه الشهادة ، فضلاً عن صدورها عن رجل لا تأخذه في الحق لومة لائم ، أن القاضي ، المُتمرس بالعمل السياسي ، قد عرف موضوع شهادته معرفةً مباشرة وطويلة . حيث كان بمثابة الوزير والمُشيروالناصح للأميرين علي وأيوب ، ابني الأمير مُحسن المُشَعشَعي. وعاش معهم فترة غير قصيرة في مركز إمارتهم . وغني عن البيان أن هذه الملابسات تمنح شهادته قيمة خاصة ، بحيث تجعلها غير قابلة للمُعارضة .

الثابت عندنا أن الغلو كان شائعاً بين سكان البطائح خصوصاً ، قبل المُشَعشَيين . وأن هؤلاء عملوا بحكمة وروية على وضعهم على الصراط المستقيم . وأعانتهم ظروف سياسية مُلائمة ، وسنقول كيف . ولكن تشنيعات أهل السياسة من خصوم السادة المُشَعشَعيين ، عكست الآية . وصوّروا للناس أن هؤلاء هم المسؤلون عن آفة شعبهم . وهذا ومثله أمر مألوف في الحرب المعنوية التي تدور بين أهل السياسة . ولنُضف إلى ذلك ، أن أعمال علي بن محمد بن فلاح المُشينة قد ساعدت على انتشار هذا الصيت عن بيته . ذلك أن هذا الرجل الطائش النزق قد جمع من حوله مجموعة من المُقاتلين الأشداء ، طفق يشن بهم الغارات على الآمنين ، فيقتل وينهب دون أدنى وازع . ومن أعماله المُشينة ، أنه اعترض طريق الحاج ، ونهب أموالهم وكراعهم ، وقتل مَن قتل منهم . ونهب الحلة وأحرقها حتى مقام أمير المؤمنين عليه السلام في النجف الأشرف لم ينجُ من شروره . فدخله وفتك بمَن صادفه من الزائرين وغيرهم . ونهب موجوداته الثمينة . ويُنسب إليه أنه قال ، على سبيل التبرير لجرمه الفظيع : " هذا رب ، والرب لا يموت " . ولم تُفلح كل مساعي أبيه في وضع حد لأعماله . بحيث أنه لجأ أخيراً إلى إعلان البراءة منه ومن آثامه . وقد قُتل علي هذا في أحد أعماله العسكرية . لكن بعد أن وصم بيته بوصمة عار لم تمح إلى الآن .

ليست بُغيتنا من وراء هذه المُرافعة ، عن السادة المُشَعشَيين مجرد تبرئتهم مما نُسب إليهم . فهم الآن بين يدي المولى ، وهو سبحانه وتعالى ولي العقاب والثواب ، وأهل العفو والمغفرة . لكن هذه النقطة ذات علاقة أكيدةبغرضنا من البحث . أعني محاولة اكتشاف آليات وعوامل نشوء الغلو ، ثم أنجع الوسائل لعلاجه . وما موضوع بحثنا سوى نموذج نادر للحالتين معاً .